وتدخل علىّ زوجتى لتحيينى تحية الصباح ، فأتلقاها بالبشر والبشاشة ، وأهم بأن أحدثها بما كبر فى وهمى قبل لحظة ، ولكنى أزجر نفسى ، وأردها عن التعزى باللغط . ولو أنى شرعت أحدثها بشىء من ذلك لما فرغت ، فما أخلو بنفسى قط إلا ورأيتنى أستطيب أن أتخيل فتاتى على كل صورة وكل هيئة وفى كل حالة من حالات الطيش والحكمة ، والغضب والسرور ، والسّخط والرضى ، والضحك والبكاء ، والعشق والسلوان ، والنفور والإقبال ، والحركة والسكون ، واللعب والنط ، والقفز والسباحة . . . ويحلو لى أن أنشىء بينى وبينها أحاديث فى كل موضوع من جد وهزل ويسرنى أن أسمع نكتها ، وأرانى أستملح فكاهتها ـ وأنتحلها فيما أكتب ـ وأضحك أحيانا بصوت عال ، بل أقهقه غير محتشم ، فإذا تعجب لى داخل متطفل علىّ فى هذه الخلوة المحببة الى نفسى رفعت له وجها كالدرهم المسيح ، وهربت بالتباله من الجواب الذى يطلبه بعينه ولسانه ، وتركته يظن بعقلى ما يشاء . وماذا أقول له ؟ فى وسعى أن أكذب . فما لباب الكذب مفتاح ، ولكن الكذب ينغص على المتعة التى استعرتها من الحوار الذى كان يدور بينى وبين «حياة» .

وأنت ياحياة الجديدة بديل من حياة التى فقدتها . لا لست بديلا ، ولا أنت عوض عنها ، ولا أحسبك يرضيك أن تكونى عوضا عما لايؤاتى . وتلك قد ربيتها صغيرة ، ودللتها وهى رضيعة بيدى هاتين اللتين أتناول بهما خديك ، ولاعبتها ، وأركبتها ظهرى ، وقطعت بها فراسخ طويلة فى الغرفة الضيقة ، وسقيتها الماء ، ورأيتها تمص ثدى أمها وهى ذاهلة عن الدنيا وما فيها ـ وما هو كائن وما عسى أن يكون ، ونحن ننظر اليها مستغربين مفتونين بهيئتها ، وهى مقبلة على الثدى ، ويدها الدقيقة على الثندوة ، وأصابعها تتحرك فى لطف ، وعلى مهل ، مستظرفين شفتها المثنية على سواد الثدى حول الحلمة ، وهى مكبة على الرضاعة .

ولكن فيك مشابه منها . وأنا أغالط نفسى ، أو أزعم أنها لو كتب لها البقاء لما عدتك . ولست تجلسين على ساقى فى الصباح الباكر ـ كما تفعل تلك فيما أتخيل ـ ولكنك تقرأين ما أكتب بعد أن ينشر ، وأراك يسرك أن تسكنى إلىّ سكون الطائر إلى وكره .

وهل هذا كل شىء ؟ لا أدرى . . وأظن ـ بل أنا واثق ـ أنك تفهمين ما أعنى حين أقول إنك فصل من كتاب حياة .